أفغانستان ١٩٧٩ - ١٩٩٢
جهاد أمريكا

«استأثر أتباعه بالانتباه عن طريق رشق وجوه النساء اللواتي يرفضن وضع الحجاب بمادة الأسيد. إن مسؤولي وكالة المخابرات المركزية ووزارة الخارجية الأميركية الذين تحدثت إليهم يصفونهم بأنهم «مرعبون»، «أشرار»، «فاشيست»، «مادة للدكتاتورية المؤكدة»[١].

هذا الكلام لم يمنع الولايات المتحدة من زخ كميات هائلة من العون على الرجل لكي يقاتل حكومة أفغانستان المدعومة من السوفييت. اسم هذا الرجل قلب الدين حكمتيار. لقد كان رئيس الحزب الإسلامي وكان يكره الولايات المتحدة بقدر كرهه للروس، وكان أتباعه يهتفون «الموت لأميركا» إلى جانب هتافهم «الموت للاتحاد السوفييتي»، والروس وحدهم لم يكونوا يمدونه بكميات كبيرة من العون[٢].

شرعت الولايات المتحدة بدعم الأصوليين الإسلاميين الأفغان في عام ١٩٧٩ على الرغم من أن بعض هؤلاء كانوا في شهر شباط من ذلك العام قد خطفوا السفير الأميركي في العاصمة كابول وأدى خطفه إلى موته في أثناء محاولة إنقاذه. وقد استمر الدعم حتى بعد أن استولى إخوانهم الأصوليون الإسلاميون في إيران المجاورة على السفارة الأمريكية في طهران في شهر تشرين الثاني، وجعلوا من خمسة وخمسين أميركياً رهائن لمدة أكثر من عام. على أية حال، كان حكمتيار وزملاؤه يخوضون المعركة ضد إمبراطورية الشر السوفييتية، وبذلك كان عضواً هاماً في تلك القوى التي كان يسميها رونالد ريغان «المحاربين من أجل الحرية».

بتاريخ ٢٧ نيسان (أبريل) ١٩٧٨ نظم حزب الشعب الديموقراطي انقلاباً أطاح بحكومة محمد داوود، وكان هذا قد أطاح قبل ذلك بخمس سنوات بالنظام الملكي

وأنشأ جمهورية، مع أنه هو نفسه كان عضواً في الأسرة المالكة. لقد لقي تأييد اليسار في هذا العمل، ولكن تبين فيما بعد أن دم داوود الملكي كان أكثر كثافة من مياهه التقدمية. وعندما أقدم نظام الحكم برئاسة داوود على قتل زعيم الحزب الديموقراطي الشعبي واعتقل بقية أعضاء الحزب وطهَّر المناصب الحكومية من مئات الأشخاص المشتبه بأنهم يتعاطفون مع الحزب، ثار حزب الشعب الديموقراطي بمساعدة مؤيديه في الجيش واستولى على السلطة.

كانت أفغانستان دولة متخلفة: معدل عمر الإنسان حوالي ٤٠ سنة، ووفاة الأطفال لا تقل عن ٢٥٪، والتمديدات الصحية بدائية بالمطلق، وسوء التغذية منتشر، ونسبة الأمية تزيد على ٩٠٪، والطرق الرئيسية قليلة جداً، ولا يوجد ميل واحد من السكك الحديدية ومعظم السكان يعيشون في قبائل رُحَّل أو أنهم مزارعون فقراء في قرى مبنية من الطين ينتسبون إلى جماعات اثنية أكثر من انتسابهم إلى مفهوم سياسي أوسع، وحياتهم تكاد لا تختلف عما كانت عليه قبل قرون عديدة.

كان الإصلاح باتجاه اشتراكي هو طموح الحكومة الجديدة: الإصلاح الزراعي (مع بقاء الملكية الخاصة) والرقابة على الأسعار والأرباح، وتعزيز القطاع العام، وكذلك الفصل بين الكنيسة والدولة، والقضاء على الأمية، وإعطاء شرعية لنقابات العمال، وتوفير الخلاص للنساء في بلد جميع سكانه تقريباً مسلمون.

حدود أفغانستان مع الاتحاد السوفييتي التي تمتد على طول ١٠٠٠ ميل كانت تنتج دائماً علاقة خاصة، وحتى عندما كان في البلد نظام ملكي، كانت أفغانستان تحت تأثير قوي من جار شمالي بالغ القوة، كان على مدى زمن طويل شريكها التجاري الأكبر، الذي يقدم لها المساعدة، ويزوّدها بالأجهزة العسكرية. ولكن لم يسبق لهذا البلد أن ابتلعه السوفييت، وهذه حقيقة ربما تعطي مصداقية للإدعاء السوفييتي المتكرر بأن هيمنة السوفييت على أوروبا الشرقية كانت فقط لخلق حاجز بينهم وبين الغرب الذي لا ينفك يغزو بلادهم.

مع ذلك حاولت واشنطن وشاه إيران خلال عقود من السنين أن يضغطا على أفغانستان وأن يرشوها لكي تطرد النفوذ الروسي من أراضيها. وخلال نظام الحكم برئاسة داوود، سعت إيران، بتشجيع من الولايات المتحدة لكي تحل محل الاتحاد السوفييتي كأكبر مصدر للمساعدة، مع إتفاقية مساعدة إقتصادية بقيمة مليوني دولار، كما أنها حثت أفغانستان على الإنضمام إلى منظمة التعاون الإقليمي من أجل التنمية التي كانت تتألف من إيران وباكستان وتركيا. (لقد هاجم الاتحاد السوفييتي هذه المنظمة وأصدقاءها في أفغانستان معتبراً إياهم «فرعاً من حلف السنتو» الذي كان في الخمسينيات من القرن العشرين حلفاً للأمن الإقليمي وكان جزءاً من السياسة الأميركية الرامية إلى «احتواء» الاتحاد السوفييتي. في الوقت ذاته كانت الشرطة السرية الإيرانية السيئة السمعة، أي (السافاك Savak) منهمكة في مقاتلة الذين يشتبه بتعاطفهم مع الشيوعيين في الحكومة الأفغانية وفي القوات العسكرية الأفغانية. في شهر أيلول عام ١٩٧٥، قام داوود، بتحريض من إيران التي ربطت مساعدتها بشرط اتباع هذه السياسات، بطرد أربعين ضابطاً عسكرياً تلقوا تدريباتهم لدى السوفييت ثم انتقل إلى تخفيض اعتماد أفغانستان في المستقبل على الاتحاد السوفييتي في تدريب الضباط وذلك عن طريق الشروع في ترتيبات للتدريب اتُّفق عليها مع الهند ومصر. أهم الأمور، في نظر السوفييت، هو أن داوود أنهى بصورة تدريجية تحالفه مع حزب الشعب الديموقراطي معلناً أنه سيؤسس حزبه الخاص ويحظر كل نشاط سياسي آخر، بموجب دستور جديد كان يعتزم صياغته[٣].

إن (سليغ هاريسون Selig Harrison)، الكاتب في جريدة «واشنطن بوست» المختص بشؤون جنوب آسيا كتب في عام ١٩٧٩ مقالاً عنوانه «الشاه، وليس الكرملين، هو الذي فجر الانقلاب الأفغاني»،وختمه قائلاً:

«إن استيلاء الشيوعيين على الحكم في كابول (نيسان ١٩٧٨) حدث في الزمن الذي حدث فيه وبالطريقة التي حدث بها، لأن الشاه زعزع التوازن الواهي الذي كان قائماً في أفغانستان بين الاتحاد السوفييتي والغرب خلال ثلاثة عقود تقريباً. إن

هجوم طهران كان في نظر الإيرانيين والأميركيين موجهاً فقط لجعل كابول أكثر صدقاً في عدم الانحياز ولكنه هجوم مضى إلى أبعد من ذلك. فإذا أخذنا في الاعتبار الحدود الطويلة بصورة غير اعتيادية مع أفغانستان لرأينا أن الاتحاد السوفييتي سيعمد بكل وضوح إلى بذل جهود كبيرة لمنع كابول من الانتقال مرة أخرى نحو موقف موالٍ للغرب»[٤].

عندما أُطيح بالشاه في كانون الثاني ١٩٧٩ خسرت الولايات المتحدة حليفها الأكبر وموقعاً لها في منطقة الحدود مع الاتحاد السوفييتي، كما خسرت منشآتها العسكرية ومحطاتها للرصد الالكتروني الموجهة ضد الاتحاد السوفييتي. إن أنصار الحرب الباردة في واشنطن كانوا الآن أشد شهوة للسيطرة على أفغانستان مما كانوا سابقاً.

عقب ثورة نيسان، أعلنت الحكومة الجديدة برئاسة الرئيس نور محمد طراقي التزامها بالإسلام ضمن دولة علمانية، وبعدم الانحياز في الشؤون الخارجية. وأكدت أن الانقلاب لم يكن مستوحى من جهة أجنبية، ولم يكن «استيلاء شيوعياً على البلد» وأن الحكومة الجديدة لم تكن «شيوعية» بل حكومة وطنيين وثوريين. (لم يسبق أبداً أن كان في أفغانستان حزب شيوعي رسمي أو تقليدي)[٥]، ولكن بسبب برنامج الحكومة للإصلاح الراديكالي وكلامها عن الصراع الطبقي وعن معاداة الإمبريالية، وتأييدها من جانب جميع الجهات التي يُشتبه بها عادة (كوبا، كوريا الشمالية، الخ) فإن توقيعها على معاهدة الصداقة واتفاقيات تعاون أخرى مع الاتحاد السوفييتي وازدياد وجود المدنيين والمستشارين العسكريين السوفييت في البلد (ربما كان هذا الوجود أقل من الوجود الأمريكي في إيران آنذاك)، أدى إلى وصمها «بالشيوعية» من قبل وسائط الإعلام في العالم ومعارضيها في الداخل.

وسواء أكان أم لم يكن من المناسب وصف الحكومة الجديدة في أفغانستان بأنها شيوعية، وسواء أكان أم لم يكن الوصف الذي يطلق عليها يعني أي فرق، فقد رُسمت خطوط الآن لمعركة سياسية وعسكرية ودعائية: الجهاد (الحرب المقدسة)

بين المسلمين الأصوليين و«الشيوعيين الملحدين الذين لا يؤمنون بالله»، القومية الأفغانية ضد حكومة «يديرها السوفييت»، كبار مالكي الأرض، وزعماء القبائل، ورجال الأعمال، والأسرة الملكية على امتدادها، وآخرون، ضد حكومة الإصلاحات الاقتصادية. لقد قال رئيس الوزراء الجديد عن هذه النخبة التي تدعو الحاجة إليها من أجل استمرار إدارة البلاد «يجب بذل كل جهد لجذبهم. ولكننا نريد إعادة تثقيفهم بطريقة تجعلهم يفكرون بالشعب، وليس، كما كانت الحال سابقاً، بأنفسهم فقط، أي بامتلاكهم منزلاً جيداً وسيارة جميلة بينما بقية الناس يموتون جوعاً»[٦].

كانت الحكومة الأفغانية تحاول إدخال البلد في القرن العشرين. لاحظ العالم السياسي البريطاني (فرد هاليدي Fred Halliday) في شهر أيار ١٩٧٩ أنه «ربما كان التغيير الذي حدث في المناطق الريفية خلال العام المنصرم يفوق ما حدث خلال قرنين منذ تأسيس الدولة». لقد ألغيت ديون الفلاحين لأصحاب الأملاك، وألغي نظام الرب (الذي كان يجعل الفلاحين المضطرين إلى اقتراض المال لقاء محاصيلهم في المستقبل، مدينين دائماً للمرابين)، وأنشئت مئات المدارس والعيادات الطبية في الريف. وقال (هاليدي) أيضاً إنه كان يجري تنفيذ برنامج هام لإعادة توزيع الأرض، وإن العديد من ٢٠٠,٠٠٠ عائلة ريفية كان مقرراً أن تحصل على أرض بموجب البرنامج، لقد حصلت عليها فعلاً. لكن هذا الإدعاء الأخير تجب مقاربته بحذر. ذلك أن الإصلاح الثوري في مجال الأرض هو دائماً مشروع بالغ التعقيد ومحفوف بالمخاطر حتى في أحسن الأحوال، علماً أن أفغانستان شديدة التخلف والمتمسكة بالتقاليد في خضم حرب أهلية وليدة كان من العسير أن توفر أحسن الأحوال لتجارب اجتماعية.

وقد اقتحمت الإصلاحات المجال الحساس الإسلامي، مجال استعباد النساء، بتحريم زواج صغار السن، وتقديم المرأة زوجة لقاء المال أو السلع، وتعليم المرأة القراءة في حين كان بعض الشيع الإسلامية يدعو علناً إلى تعزيز نظام (البوردا Purda) – أي حجب النساء عن أعين العامة من الناس.

نوّه هاليدي بأن حزب الشعب الديموقراطي كان يرى في الاتحاد السوفييتي المصدر الواقعي الوحيد لدعم التحديث الذي تأخر زمناً طويلاً[٧] إن أبناء عمومة الفلاحين الأفغان الأميين الموجودين عبر الحدود في الاتحاد السوفييتي، هم في أغلب الأحيان خريجو جامعات وأصحاب مهن.

إن حجة المتمردين من المجاهدين بأن الحكومة «الشيوعية» ستحد من حريتهم الدينية لم تصمد من الناحية العملية. لقد قالت مجلة «الاكونومست» البريطانية المحافظة بعد مرور عام على تغيير الحكومة: «إنه لم تفرض أية قيود على الممارسة الدينية»[٨] وقبل ذلك، قالت جريدة «نيويورك تايمز»: إن المسألة الدينية يجري استخدامها من بعض الأفغان الذين ينصبّ اعتراضهم أكثر ما ينصب على خطط الرئيس طراقي للإصلاح في الأرض والتغييرات الأخرى في هذا المجتمع الإقطاعي»[٩]. والحقيقة أن كثيرين من رجال الدين المسلمين كانوا من مالكي الأرض الأثرياء[١٠]. واستنتج مراسل لهيئة الإذاعة البريطانية كان قد أمضى معهم أربعة شهور أن المتمردين «يقاتلون من أجل المحافظة على نظامهم الإقطاعي وإيقاف إصلاحات حكومة كابول اليسارية التي تعتبر معادية للإسلام»[١١].

الدولتان الأخريان اللتان تشتركان بحدود طويلة مع أفغانستان واللتان كانتا حليفتين وثيقتي الصلة مع الولايات المتحدة، أعربتا عن مخاوفهما من الحكومة الجديدة. من جهة الغرب كانت إيران، التي كانت لا تزال تحت حكم الشاه، تشعر بالقلق على «التهديدات التي تتعرض لها طرق نقل النفط في الخليج الفارسي». ومن جهة الجنوب كانت باكستان، التي كانت تتحدث عن «تهديدات من أفغانستان معادية وتوسعية»[١٢]. أحد السفراء الأمريكيين السابقين في أفغانستان رأى أنها جزء من «حركة كماشة تطبق فكيها تدريجياً على إيران ومناطق النفط في الشرق الأوسط»[١٣]. لقد تبين أن هذه المخاوف المزعومة ليس بينها ما له أساس أو دليل يشهد بصحته، ولكن هذا يثبت فقط في أذهان المعادين للشيوعية أن الروس وصنائعهم الأفغان قد أوقفوا عند حدودهم في الوقت المناسب.

بعد مرور شهرين على انقلاب نيسان ١٩٨٧، كان تحالف مؤلف من عدد من الفئات الإسلامية المحافظة يشن حرب عصابات على الحكومة[١٤]. ومع حلول فصل الربيع عام ١٩٧٩ كان القتال يدور على جبهات عديدة، وكانت وزارة الخارجية الأمريكية تحذر الاتحاد السوفييتي ومستشاريه في أفغانستان من التدخل عسكرياً في النزاع الأهلي. أحد هذه التحذيرات الذي ورد في فصل الصيف على لسان المتحدث باسم وزارة الخارجية الأمريكية (هودنغ كارتر Hodding Carter) كان واحداً من النصب التذكارية (للتشوتزباه : Chutzpah) «نحن نتوقع احترام جميع الأطراف في المنطقة لمبدأ عدم التدخل، بما في ذلك الاتحاد السوفييتي»[١٥]. حدث ذلك بينما كان السوفييت يتهمون وكالة المخابرات المركزية بتسليح الأفغان الذين يعيشون في المنفى في باكستان، بينما كانت الحكومة الأفغانية تتهم هي أيضاً إيران وباكستان بمساعدة رجال العصابات بل وباجتياز الحدود للمشاركة في القتال. كانت باكستان مؤخراً قد انحرفت انحرافاً حاداً نحو التشدد في العقيدة الإسلامية، الأمر الذي أبدت الحكومة الأفغانية أسفها له باعتباره «تعصباً»[١٦]. بينما أقامت إيران في شهر كانون الثاني دولة إسلامية بعد الإطاحة بالشاه. (كان الوصف الذي يطلق في الغرب باستمرار على الأصوليين الإسلاميين الإيرانيين هو وصف الإرهابيين المحافظين المعادين للديموقراطية بعكس وصف الأصوليين الأفغان بأنهم مناضلون من أجل الحرية).

أحد «التكتيكات» التي كان يحبذها المناضلون الأفغان من أجل الحرية هو «تعذيب الضحايا (أكثرهم من الروس) أولاً بجدع أنوفهم، وقطع آذانهم وأعضائهم التناسلية وسلخ قطعة بعد الأخرى من جلودهم» مع ما يسببه ذلك من «موت مؤلم بطيء»[١٧]. وقتل المجاهدون أيضاً سائحاً كندياً وستة ألمان غربيين، بينهم طفلان، وقاموا بسحب ملحق عسكري أمريكي من سيارته وضربوه، كل ذلك لأن هؤلاء المتمردين كما يبدو لم يستطيعوا التمييز بين الروس وغيرهم من الأوروبيين[١٨].

في شهر آذار ١٩٧٩ ذهب طراقي إلى موسكو للضغط على السوفييت من أجل إرسال قوات برية لمساعدة الجيش الأفغاني على وضع حد للمجاهدين. تلقى وعداً بتقديم مساعدة عسكرية، لكن لم يكن بالإمكان الالتزام بإرسال قوات برية. لقد قال كوسيغين رئيس الوزراء السوفييتي للزعيم الأفغاني:

«إن دخول جنودنا إلى أفغانستان سيثير غضب الأسرة الدولية ويفجر سلسلة من التداعيات السلبية للغاية في مناطق مختلفة عديدة. إن أعداءَنا المشتركين ينتظرون لحظة ظهور الجنود السوفييت في أفغانستان. وذلك سيوفر لهم العذر الذي يحتاجونه لإرسال عصابات مسلحة إلى البلد»[١٩].

صارت المسألة في شهر أيلول أكاديمية تماماً بالنسبة لنور محمد طراقي لأنه عزل من منصبه (وسرعان ما أعلنت وفاته) في صراع بين الأحزاب وحل محله نائب رئيس مجلس وزرائه، حفيظ الله أمين. ومع أن طراقي كان في بعض الأحيان متشدداً في تنفيذ البرنامج الإصلاحي، وخلق معارضة حتى من صفوف المقصود بهم أن ينتفعوا من البرنامج، تبين أنه معتدل مقارنة مع أمين الذي حاول إيجاد تغيير اجتماعي بواسطة تغليب القوة على التقاليد والحكم الذاتي القبلي والاثني.

لم يكن الكرملين مرتاحاً إلى أمين. حقيقة أنه كان له ضلع في الإطاحة بطراقي المحبوب كثيراً وبموته كانت حقيقة سيئة بما فيه الكفاية. ولكن السوفييت اعتبروه إلى جانب ذلك غير مناسب إطلاقاً للمهمة التي كانت بالنسبة لموسكو شرطاً لابد منه: الحيلولة دون قيام دولة إسلامية معادية للشيوعية في أفغانستان. لقد أعطى أمين الإصلاح اسماً سيئاً للغاية. ذكرت محطة المخابرات السوفييتية في كابول من خلال إلحاحها على عزل أمين، أن اغتصابه السلطة سيؤدي إلى أعمال قمع قاسية، وكرد فعل، إلى تنشيط وتوطيد المعارضة[٢٠]. علاوة على ذلك، كما سنرى، كانت لدى السوفييت شكوك كثيرة في قناعات أمين الأيديولوجية.

وهكذا كان الأمر، أي أن ما لم يكن يخطر بالبال في شهر آذار، أصبح حقيقة في شهر كانون الأول. وقد بدأت القوات السوفييتية تصل إلى أفغانستان حوالي

اليـوم الثـامن من الشـهـر - أمـا إلى أي مـدى حـدث ذلك بناء على طلب أمين أو بموافقته، وبالتالي ما إذا كان وصول هذه القوات يسمى «غزواً» أم لا، فذلك موضوع الكثير من البحث والجدل.

في اليوم الثالث والعشرين من الشهر قالت جريدة «واشنطن بوست» في تعليق لها: «يوجد اتهام (من قبل وزارة الخارجية الأمريكية) أن السوفييت غزوا أفغانستان إذ أن الجنود كما يبدو جاؤوا بناء على دعوة»[٢١].

على أي حال، فإن وزير خارجية أمين كان قد انتقد صراحة تدخل الاتحاد السوفييتي في الشؤون الأفغانية خلال اجتماع مع سفراء دول الكتلة السوفييتية عُقد في تشرين الأول. كما أن أمين نفسه أصر على تبديل موسكو سفيرها لدى أفغانستان[٢٢]. مع ذلك، في اليوم السادس والعشرين من كانون الأول، بينما كان العدد الرئيسي من الجنود السوفييت يصل إلى أفغانستان، أعطى أمين «مقابلة صحفية تحدث فيها بلهجة مخففة» إلى أحد الصحافيين العرب. وقد قال فيها: «إن السوفييت يزودون بلدي بالمساعدات الاقتصادية والعسكرية، وهم في الوقت ذاته يحترمون استقلالنا وسيادتنا، وهم لا يتدخلون في شؤوننا الداخلية». وتحدث أيضاً عن استعداد الاتحاد السوفييتي لقبول اعتراضه على إقامة قواعد عسكرية[٢٣].

في اليوم التالي تماماً اقتحمت قوة عسكرية سوفييتية القصر الرئاسي وأطلقت النار على أمين فتوفي[٢٤].

حل محله بابراك كارمال الذي كان نائباً للرئيس ونائباً لرئيس الوزراء في حكومة عام ١٩٧٨ الثورية.

أنكرت موسكو أي دور لها في وفاة أمين، مع أنها لم تظهر الأسى لموته، وهذا ما أوضحه بريجينيف بقوله:

«إن أعمال المعتدين على أفغانستان قد سهلها أمين الذي شرع عند استيلائه على السلطة بقمع أجزاء واسعة من المجتمع الأفغاني بقسوة شديدة، وشمل هذا

القمع الكوادر الحزبية والعسكرية، وأفراداً من المثقفين ورجال الدين الإسلامي، أي تلك الأجزاء من المجتمع التي اعتمدت عليها ثورة شهر نيسان. وقد انتفض الشعب بقيادة الحزب الشعبي الديموقراطي، وبرئاسة بابراك كارمال، ضد طغيان أمين واضعاً حداً لهذا الطغيان. أما الآن، هنالك من يظهرون حزنهم على أمين في واشنطن وبعض العواصم الأخرى. هذا يكشف نفاقهم بكل وضوح. فأين كان هؤلاء المحزونون عندما كان أمين يقوم بعملية قمع واسعة، عندما عزل بالقوة وبصورة غير قانونية طراقي مؤسس الدولة الأفغانية الجديدة وقتله»[٢٥].

بعد عزل أمين وقتله تجمعت الناس في الشوارع على نحو «ما يفعل الناس أيام العيد». قال دبلوماسي غربي: «إذا كان كارمال قد تمكن من الإطاحة بأمين بدون مساعدة الروس فقد كان من شأنه أن يعتبره الشعب بطلاً»[٢٦].

لقد دأبت الحكومة السوفييتية والصحافة السوفييتية على الإشارة إلى أمين على أنه «عميل لوكالة المخابرات المركزية» وهي تهمة قوبلت في الولايات المتحدة وغيرها من البلدان بكثير من الشك[٢٧]. غير أن هناك دليلاً ثابتاً يؤيد التهمة بحيث أنه لا يجوز استبعادها كلياً بدون نقاش.

خلال أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن العشرين كان أمين يدرس في كلية المعلمين في جامعة كولومبيا وفي جامعة ويسكونسين[٢٨] كانت تلك المدة تمثل الأوج بالنسبة لوكالة المخابرات المركزية - التي كانت تستخدم الرشا والتهديدات المؤثرة - لمحاولة تجنيد الطلاب الأجانب الموجودين في الولايات المتحدة لكي يتعاونوا معها كعملاء لدى عودتهم إلى أوطانهم. وخلال هذه المدة كان رئيس واحد على الأقل من رؤساء جمعية الطلاب الأفغان المدعو ضياء نورزاي، يعمل مع وكالة المخابرات المركزية في الولايات المتحدة ومن ثم أصبح رئيساً لخزينة الدولة في أفغانستان. إن أحد الطلاب الأفغان الذي حاول عبثاً كل من نورزاي ووكالة المخابرات المركزية تجنيدهم، المدعو عبد اللطيف عُتقي، قد أعلن في عام ١٩٦٧ أن

عدداً لابأس به من كبار المسؤولين في الحكومة الأفغانية الذين درسوا في الولايات المتحدة «إما تدربوا لدى وكالة المخابرات المركزية أو بثت فيهم أفكارها، بعضهم على مستوى مجلس الوزراء»[٢٩] لقد قيل ان أمين: أصبح في عام ١٩٦٣ رئيساً لجمعية الطلاب الأفغان، ولكن ذلك لم يتم توثيقه[٣٠]. بيد أنه من المعروف أن جمعية الطلاب الأفغان تلقت جانباً من تمويلها من (مؤسسة آسيا Asia Foundation) وهي الجبهة الرئيسية لوكالة المخابرات المركزية في آسيا منذ سنوات عديدة، وان أمين كان ذات مرة مرتبطاً بهذه المنظمة[٣١].

في شهر أيلول ١٩٧٩، أي الشهر الذي تولى فيه أمين السلطة، شرع القائم بالأعمال الأميريكي في كابول (بروس أمستوتز Bruce Amstutz) بعقد اجتماعات ودية معه لطمأنته إلى أنه يجب أن لا يقلق من جراء حلفائه السوفييت التعساء مادامت الولايات المتحدة تحتفظ بحضور قوي في أفغانستان. لعل هذه الاستراتيجية كان يمكن أن تنجح. إذ إن أمين، في وقت لاحق من الشهر نفسه وجه نداء إلى أمستوتز بشأن تحسين العلاقات مع الولايات المتحدة. بعد ذلك بيومين، عبَّر وزير الخارجية الأفغاني بهدوء في مدينة نيويورك عن نفس المشاعر أمام مسؤولي وزارة الخارجية الأميركية. وفي نهاية شهر تشرين الأول ذكرت السفارة الأميركية في كابول أن أمين «كان مدركاً بألم وجود قيادة في المنفى يحتفظ بها السوفييت وهي موضوعة على الرف». (كان ذلك في إشارة إلى كارمال الذي كان مقيماً في تشيكوسلوفاكيا)[٣٢]. إن اجتماعات أمين مع الأميركيين كان يمكن اعتبارها في الظروف العادية اتصالاً دبلوماسياً روتينياً بريئاً، غير أن الظروف آنذاك يصعب اعتبارها عادية، فقد كانت الحكومة الأفغانية عالقة في حرب أهلية، وكانت الولايات المتحدة تساند الجانب الآخر.

علاوة على ذلك، يمكن القول: إن أمين، بقسوته الشديدة، كان يفعل تماماً ما هو منتظر من عميل أمريكي أن يفعله: أي أن يشوّه سمعة حزب الشعب الديموقراطي، وإصلاحات الحزب، وفكرة الاشتراكية أو الشيوعية، والاتحاد

السوفييتي، جميعهم في رزمة واحدة. كما أن أمين أجرى عمليات تطهير في أوساط ضباط الجيش قوّضت بصورة خطرة قدرة الجيش القتالية.

ولكن ما الذي يجعل أمين، إذا كان فعلاً يتآمر مع الأميركيين، أن يطلب قوات عسكرية سوفييتية في مناسبات عدة؟ يبدو أن السبب الرئيسي لذلك هو أنه كان يتعرض للضغط لكي يفعل ذلك من جانب مستويات رفيعة في حزب الشعب الديمقراطي وكان لابد من استجابته لهم إنقاذاً للمظاهر. غير أن بابراك كارمال طرح سيناريوات أخرى أكثر ميكيافيلية[٣٣].

قفزت إدارة كارتر إلى موضوع «الغزو» السوفييتي وسرعان ما شنت حملة من الغضب الصادق، فارضة ما سماها الرئيس كارتر «عقوبات» - اعتباراً من إيقاف تسليم القمح إلى الاتحاد السوفييتي وحتى منع الفريق الأولمبي الأمريكي من المشاركة في الألعاب الأولمبية التي جرت في موسكو عام ١٩٨٠.

لقد رد الروس على ذلك بقولهم: «أن الولايات المتحدة كانت حانقة من جراء التدخل لأن واشنطن كانت تتآمر بتحويل البلد إلى قاعدة أمريكية تعويضاً عن خسارة إيران[٣٤].

لم يكن أمراً مفاجئاً أن الرأي العام الأمريكي والإعلام الأمريكي انحازا بسهولة إلى موقف الرئيس في هذه المسألة التي تبدو بوضوح معاداة للشيوعية. لقد دعت جريدة وول ستريت جورنال إلى رد فعل «عسكري»، وإقامة قواعد عسكرية أمريكية في الشرق الأوسط، و«إعادة العمل بتسجيل المجندين» وتطوير صاروخ جديد وإعطاء وكالة المخابرات المركزية هامشاً أوسع، مضيفة إلى ذلك قولها: «من الواضح أنه ينبغي لنا أن نبقي الفرصة مفتوحة لتقديم المساعدات سراً إلى الثوار الأفغان»[٣٥]. تقديم المساعدات سراً إلى الثوار الأفغان، سواء أكانت الجريدة تعرف ذلك أم لا، ماكان يحدث منذ بعض الوقت. فقد كانت وكالة المخابرات المركزية توجه برامج دعائية إذاعية إلى أفغانستان خلال مدة سابقة للغزو السوفييتي، وتقيم تحالفات مع

قادة حرب العصابات الأفغان المقيمين في المنفى، عن طريق تزويدهم بالأدوية وأجهزة الاتصالات[٣٦]. وكان موظفو الخارجية الأمريكية يجتمعون بقادة المجاهدين لمعرفة حاجاتهم على الأقل منذ شهر نيسان ١٩٧٩[٣٧]. ثم إن الرئيس كارتر وقع في شهر تموز على «نتائج تحقيق» تقضي بتقديم مساعدات سرية إلى الثوار، الأمر الذي أدى إلى تزويدهم من قبل الولايات المتحدة بالمال نقداً، والأسلحة، والمعدات والمؤن والقيام بأعمال دعاية وعمليات سيكولوجية أخرى لمصلحتهم في أفغانستان[٣٨].

إن تدخل الولايات المتحدة، وإيران، وباكستان، والصين وآخرين، في الحرب الأهلية الأفغانية، جعل الروس يشعرون بقلق شديد لمعرفة من سيمسك بزمام السلطة إلى جوارهم. كان الروس يستشهدون دائماً «بالقوات الإمبريالية العدوانية» لكي يسوّغوا تدخلهم في أفغانستان، الذي كان أول مشاركة من جانب قوات برية سوفيتية في عمل عسكري في أي مكان من العالم خارج حدود السوفييت الأوروبية الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية. إن إمكانية إقامة دولة إسلامية معادية للشيوعية على حدود جمهوريات الاتحاد السوفييتي في آسيا الوسطى السوفييتية التي كانت موطن أربعين مليون مسلم لم يكن بالإمكان أن ينظر إليها الكرملين بارتياح أكثر مما كان بإمكان واشنطن أن تنظر بهدوء إلى استيلاء الشيوعيين على الحكم في المكسيك.

لم تقصر الولايات المتحدة، كما رأينا مراراً، محيطها الدفاعي على جيرانها المباشرين، أو حتى على أوروبا الغربية، بل وسعته ليشمل الكرة الأرضية بكاملها. لقد أعلن الرئيس كارتر أن الخليج الفارسي «يتعرض الآن للتهديد من القوات السوفييتية في أفغانستان»، وأن هذه المنطقة مرادفة للمصالح الأمريكية، وأن الولايات المتحدة «ستدافع» عنها ضد أي تهديد بكل الوسائل اللازمة. وهو وصف العمل السوفييتي بأنه «أكبر تهديد للسلام منذ الحرب العالمية الثانية»، وهذا كان كلاماً اقتضى التغاضي عن جانب كبير من تاريخ ما بعد الحرب. ولكن عام ١٩٨٠ كان عام انتخابات.

من ناحية أخرى أعلن بريجينيف أن «المصالح القومية أو أمن الولايات المتحدة الأمريكية أو أي أية دولة أخرى لا تتأثر بأي شكل من الأشكال بالأحداث الجارية في أفغانستان، وكل المحاولات الرامية لتصوير الأمور بغير ذلك هي محض هراء»[٣٩].

كانت إدارة كارتر بالمثل رافضة لدواعي القلق السوفييتية، فقد قال مستشار الأمن القومي (زبغنيو بريجنسكي Zbignew Breginski) في وقت لاحق «إن المسألة ليست ما هي دوافع بريجينيف الاعتبارية للدخول إلى أفغانستان، بل التداعيات الموضوعية لوجود عسكري سوفييتي على هذا القرب من الخليج الفارسي»[٤٠].

كان المسرح الآن مهيأً لاثني عشر عاماً طويلاً من أفظع أنواع الحرب، فظائع يومية تتعرض لها الأكثرية الكبرى من الشعب الأفغاني الذي لم يطلب هذه الحرب ولا أرادها.

ولكن الاتحاد السوفييتي كان مصمماً على ألا تكون حدوده مصدر تهديد. كانت الحكومة الأفغانية ملتزمة هدفها المتمثل بأفغانستان علمانية مشمولة بالإصلاح. أما الولايات المتحدة فكانت عازمة على جعل أفغانستان «فيتنام السوفييتية» ينزف فيها السوفييت ببطء على نحو ما نزف الأمريكيون في فيتنام. في الوقت ذاته، لم يكن ليغيب عن فهم صانعي السياسة الأمريكيين - مع أنهم لا يجدون الجرأة للاعتراف بذلك علناً وبصراحة - أن تأييد المجاهدين (كثيرون منهم يحملون معهم صور آية الله الخميني) يمكن أن يؤدي إلى قيام دولة إسلامية أصولية في أفغانستان لا تقل قمعاً عن إيران المجاورة لها، والتي كانت في الثمانينيات من القرن العشرين العدو رقم واحد لأمريكا. لذلك لم يكن بإمكان المسؤولين في واشنطن أن يلفظوا كلمة «إرهابي» عندما يتحدثون عن حلفائهم/ عملائهم الجدد، رغم أن هؤلاء الناس بالذات أسقطوا طائرات مدنية وزرعوا قنابل في المطار. في عام ١٩٨٦ استقبلت رئيسة وزراء بريطانيا، مارغريت ثاتشر، التي لم يكن أحد يجاريها في مشاعر الذمّ «بالإرهابيين، عبد الحق، أحد قادة الثوار الأفغان، الذي اعترف بأنه هو الذي زرع

قنبلة في مطار كابول في عام ١٩٨٤، أودت بأرواح ما لا يقل عن ٢٨ شخصاً[٤١]. هكذا إذاً كانت وساوس الحرب الباردة تجاه الشيوعيين في أواخر القرن العشرين. وكما كان أناستاسيو سوموزا «ابن الكلب» في نظرنا فإن المجاهدين هم الآن «إرهابيونا المتعصبون».

في أول الأمر كان هناك بعض التفكير في أخلاقية السياسة. قال مسؤول كبير في إدارة كارتر: «السؤال هنا هو هل كان من المقبول أخلاقياً، من أجل إبقاء السوفييت فاقدين توازنهم، علماً أن هذا هو سبب العملية، أن نستخدم أرواح آخرين من أجل مصالحنا الجيوبوليتيكية»[٤٢].

ولكن مشاعر من هذا النوع لا يمكنها أن تبقى حية. لقد كانت أفغانستان حلم دعاة الحرب الباردة: فقد وضعت وكالة المخابرات المركزية والبنتاغون، في نهاية الأمر، أحد الجيوش التي تحارب نيابة عنهم، في مجابهة مباشرة مع قوات إمبراطورية الشر. لا يوجد ثمن كبير إلى حد أنه لا يمكن دفعه من أجل لعبة (Super Nintendo)، لا أرواح مئات الآلاف من الأفغان، ولا تدمير المجتمع الأفغاني، ولا ثلاثة ملايين من الدولارات من أموال دافعي الضرائب الأميركيين، التي تنصب في حفرة لا قرار لها، معظمها يستخدم فقط لجعل قلة من الأفغان والباكستانيين أثرياء. والكونغرس بدوره لم يكن متحمساً حتى بدون الحيرة الأخلاقية التي جعلت من أعضاء الكونغرس أشخاصاً حذرين في موضوع تسليح جماعة الكونترا في نيكاراغوا - وأصبح (قرن الخيرات horn of plenty) الفعلي بالتوافق بين الحزبين لتخصيص المزيد والمزيد من المال لهذا المجهود كل عام. إن عضو مجلس النواب الأمريكي (تشارلز ويلسون Charles Wilson) من ولاية تكساس عبّر عن شعور لا يخرج عن المألوف لدى واشنطن الرسمية عندما قال:

«كان في فيتنام ٥٨ ألف رجل ميت، ونحن مدينون للروس بواحد.. عندي هاجس بسيط في هذا الأمر، وذلك بسبب فيتنام. أظن أنه كان يجب أن ينال

السوفييت جرعة من ذلك.. لقد كان رأيي أنه من الأفضل لو أُنفق هذا المال لإلحاق الأذى بخصومنا أكثر من إنفاق المال في وجوه أخرى من ميزانية وزارة الدفاع..»[٤٣].

تحولت وكالة المخابرات المركزية إلى منسق كبير، صارت تشتري أو تُشرف على صنع أسلحة من الطراز السوفييتي من مصر، والصين، وبولندا، وإسرائيل وبلدان أخرى أو تقدم أسلحة من عندها، وتتولى ترتيب التدريب العسكري من قبل الأميركيين والمصريين والصينيين والإيرانيين وتحث بلدان الشرق الأوسط على تقديم تبرعات، وبصورة خاصة المملكة العربية السعودية التي كانت تقدم عدة مئات من ملايين الدولارات بشكل مساعدة كل عام، حتى بلغ مجموع ما قدمته أكثر من بليون دولار، وكانت تضغط على باكستان وترشوها - مع العلم أن العلاقات الأمريكية مع باكستان كانت في الآونة الأخيرة هزيلة جداً - لكي تؤجر بلدها كمنطقة للانطلاق العسكري وكملاذ، واضعة المدير الباكستاني للعمليات العسكرية، البريغادير «ميان محمد أفضال» على قائمة الذين يحصلون على رواتب من وكالة المخابرات المركزية ضماناً لتعاون باكستان[٤٤]، وجرى إبلاغ باكستان من جانب الولايات المتحدة أن المساعدات العسكرية والاقتصادية التي قطعت عنها ستعاد إذا انضمت باكستان إلى الحملة الكبيرة. وكان الغوغاء المعادون لأمريكا قد أحرقوا السفارة الأمريكية في إسلام آباد والمراكز الثقافية الأمريكية في مدينتين باكستانيتين أخريين ونهبوها قبل التدخل السوفييتي بشهر واحد[٤٥].

ورد تقرير من السفير الأمريكي في ليبيا يفيد أن معمر القذافي أيضاً كان يرسل إلى الثوار ٢٥٠,٠٠٠ دولار، ولكن يفترض أن هذا المبلغ لم يكن بناء على طلب من وكالة المخابرات المركزية[٤٦].

تركت واشنطن لباكستان الخيار في أن تقرر أياً من جماعات حرب العصابات الأفغانية المختلفة يجب أن تنتفع من جانب كبير من هذه الهبة السخية. ووفقاً لتعبير أحد المراقبين الذي قال «تبعاً للحكمة التقليدية في ذلك الحين، كان على الولايات المتحدة أن تتفادى تكرار غلطة فيتنام - أي إدارة هزيلة لحرب في محيط ثقافي لا تفهمه»[٤٧].

لم يتم شراء الجميع في باكستان. إن جريدة «المسلم» اليومية المستقلة التي تصدر في إسلام آباد اتهمت الولايات المتحدة أكثر من مرة بأنها مستعدة للقتال «إلى آخر أفغاني».. «لا يمكن أن تتملقنا واشنطن بوصفنا إحدى دول الجبهة. لا يبدو أن مزاج واشنطن يميل إلى السعي لإيجاد تسوية مبكرة لحرب تحصد هي فوائدها دون أن تخسر رجالاً أمريكيين»[٤٨].

ليس واضحاً بالفعل هل كانت هناك خسائر بأرواح الأمريكيين في الحرب. فقد أعلنت حكومة كابول في مناسبات عديدة في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين عن مقتل أمريكيين في القتال[٤٩]. وفي عام ١٩٨٥ قالت إحدى صحف لندن أن حوالي أربعة وعشرين مسلماً من الأمريكيين السود كانوا في أفغانستان يقاتلون جنباً إلى جنب مع المجاهدين في جهاد يقول التأويل الأصولي للقرآن: إنه فرض في الإسلام على كل المؤمنين على الأقل مرة في حياة المرء[٥٠]. كثيرون من المسلمين السود عادوا إلى الولايات المتحدة بعد إصابتهم بجروح.

العدوان السوفييتي.. الغزو السوفييتي.. ابتلاع السوفييت دولة أخرى بريئة كجزء من خطتهم للسيطرة على العالم، أو على الأقل الشرق الأوسط.. هذا هو الدرس الدائم الذي كانت تلقنه تصريحات واشنطن الرسمية والغالبية من وسائط الإعلام الأمريكية عن الحرب، والذي كان مجمل ما يعرفه الأمريكي العادي، مع أن أفغانستان حافظت على استقلالها خلال ستين عاماً من العيش بسلام في جوار الاتحاد السوفييتي، ومع أن زبغنيو بريجنسكي كان معادياً بلا هوادة للسوفييت، فقد تحدث مراراً في مذكراته عن «حياد» أفغانستان[٥١]. لقد كان هذا البلد محايداً حتى خلال الحرب العالمية الثانية.

ينبغي للمرء أن يدقق طويلاً وبدقة في المعلومات والكلام البلاغي الذي كان يقال للرأي العام الأمريكي عقب التدخل السوفييتي ليجد ولو تلميحاً أن الحرب الأهلية كانت أساساً صراعاً حول إصلاح اجتماعي عميق الجذور، في حين أنه لم

يكن هناك في الواقع أي بحث حقيقي للمسألة. كان باستطاعة المرء، قبل التدخل، أن يحصل على مذاق من ذلك، كالكلام التالي منقولاً عن جريدة «نيويورك تايمز»:

«محاولات الإصلاح في ملكية الأرض قوضت مكانة زعماء القرى. صور لينين هددت زعماء الدين في القرى، ولكن منح حكومة كابول الثورية النساء حقوقاً جديدة هو الذي دفع الرجال المسلمين مستقيمي الرأي في قرى الباشتون الواقعة في شرق أفغانستان إلى حمل البنادق.. الحكومة أمرت بأن تحضر نساؤنا الاجتماعات وأن يذهب أولادنا إلى المدارس. إن في هذا تهديداً لديننا. يجب أن نقاتل.. الحكومة فرضت أوامر متعددة تبيح للنساء حرية الزواج بمن يخترنه بدون موافقة الوالدين[٥٢].

طوال الثمانينيات من القرن العشرين تابع نظام الحكم برئاسة كارمال، ثم برئاسة نجيب الله، وبالرغم من متطلبات الحرب، برنامج التحديث وتوسيع قاعدته، بإيصال الكهرباء إلى القرى، إضافة إلى العيادات الصحية، وتطبيق قدر من إصلاح توزيع الأراضي، ومكافحة الأمية، والإفراج عن العديد من السجناء الذين سجنهم أمين بصورة مغايرة للقانون، وإشراك الملالي وآخرين من غير المنتمين إلى أحزاب في الحكومة، في محاولة لتنفيذ كل ذلك باعتدال وبحساسية بدلاً من مجابهة مباشرة مع البنى التقليدية، مع تكرار الالتزام بالإسلام، وبناء المساجد وترميمها، وإعفاء الأراضي التي تملكها شخصيات دينية أو المؤسسات التابعة لهم من إصلاح توزيع الأراضي، وباختصار حاول نظام الحكم تجنب الأخطاء الكبيرة التي ارتكبتها حكومة أمين في تسرعها لفرض التغييرات على رقاب الناس[٥٣].

كتب (سيلغ هاريسون Selg Harrison) في عام ١٩٨٨ ما يلي:

«يعتبر الشيوعيون الأفغان أنفسهم وطنيين ومنفذين للتحديث.. وتعليلهم العقلي لتعاونهم مع الروس هو أنه الطريقة الوحيدة المتاحة لتوطيد ثورتهم في مواجهة «التدخل» الخارجي.. إن التزام الشيوعيين بسرعة التحديث يمكّنهم من كسب التسامح المقترن بالشكوى من العديد من أعضاء الطبقة الوسطى منفتحي الذهن،

الذين كانوا محشورين بين نارين: الروس من جهة والمسلمين المتعصبين معارضي الإصلاحات الاجتماعية[٥٤].

لقد شجع برنامج حكومة كابول مع مرور الوقت متطوعين كثيرين لحمل السلاح تحت رايتها. ولكن القتال كان بالتأكيد كصعود التل، لأنه كان من السهل نسبياً على أعداء الإصلاح من أهل البلد ومعاضديهم الأجانب إقناع أعداد كبيرة من الفلاحين العاديين بأن الحكومة تضمر نيات سيئة عن طريق تعمية الفرق بين الحكومة الحالية وسابقتها المكروهة والملتزمة بالعقائد، خاصة أن الحكومة كانت مغرمة بالتشديد على استمرارية ثورة نيسان ١٩٧٨[٥٥]. ثمة شيء وحيد لم يطلع عليه الفلاحون والمعادون للإصلاح هو، بلا شك، علاقة الولايات المتحدة مع السلف الكريه ذاته، حفيظ الله أمين.

كانت هنالك مشكلة أخرى واجهتها حكومة كابول في سعيها لكسب قلوب وعقول الناس، هي بطبيعة الحال الوجود السوفييتي المسلح والمستمر، ولكن يجب ألا يغيب عن البال أن المعارضة الإسلامية للحكومة اليسارية بدأت قبل وقت غير قصير من وصول القوات السوفييتية. والحقيقة أن حكمتيار، الأشد ميلاً إلى القتال من بين زعماء المجاهدين، كان قد تزعم انتفاضة ضد الحكومة السابقة (ليست يسارية) أيضاً في عام ١٩٧٥ معلناً أن «نظاماً للحكم كافراً وخاضعاً للسيطرة الشيوعية» يحكم في كابول[٥٦].

طالما بقيت القوات السوفييتية كان يمكن عرض النزاع في أفغانستان على الذهنية الأمريكية بأنه لا يعدو كونه معركة بين الغزاة الروس والمقاومين الأفغان المناضلين من أجل الحرية، وكأن الجيش الأفغاني والحكومة الأفغانية غير موجودين، أو بالتأكيد ليس لهما عدد كبير من الأنصار من أبناء الشعب الذين يحبذون الإصلاحات ولا يريدون العيش في ظل حكومة إسلامية أصولية، ولعل هؤلاء يمثلون أكثرية الشعب.

قال محمد حكيم، عمدة كابول، وهو جنرال في الجيش الأفغاني سبق له أن تدرب في السبعينيات من القرن العشرين في قواعد عسكرية في الولايات المتحدة

وكان يرى أن أمريكا هي «أفضل البلدان»: «لعل الناس في الحقيقة لا يحبوننا أيضاً ولكنهم يحبوننا أكثر مما يحبون المتطرفين، وهذا ما غاب عن فهم البلدان الغربية. إننا نأمل فقط أن ينظر السيد بوش وشعب الولايات المتحدة إلينا نظرة جيدة. إنهم يظنون أننا شيوعيون متعصبون، ولسنا كائنات بشرية. لكننا لسنا متعصبين ولا حتى شيوعيين»(٥٧).

كانت أخبارهم في وسائط الإعلام الأمريكية. وما من مسؤول في الحكومة الأفغانية بل الحكومة بكاملها، إلا وكان يُوصف في الإعلام الأمريكي بصورة دائمة أنه «شيوعي» أو «ماركسي» أو «موال للشيوعيين» أو «محبذ للماركسية»،الخ، بدون شرح أو تعريف. إن نجيب الله الذي تسلم الحكم بعد سقوط كارمال في عام ١٩٨٦ جرى تثبيته في منصبه في عام ١٩٨٧ بموجب دستور إسلامي جديد خلا من كل العبارات البلاغية الاشتراكية وكان محشواً بإشارات إلى الإسلام والقرآن الكريم. وفي خطابه الذي ألقاه عند قبوله التكليف قال: «هذا ليس بلداً اشتراكياً ثورياً. نحن لا نريد بناء مجتمع شيوعي»(٥٨).

ترى هل تمكنت الولايات المتحدة من أن ترى إلى أبعد من أيديولوجية الحرب الباردة وأن تدرس احتياجات الشعب الأفغاني؟ في شهر آب ١٩٧٩، أي قبل التدخل السوفييتي بثلاثة شهور جاء في تقرير ختم بالسرية صادر عن وزارة الخارجية الأمريكية مايلي:

«إن ما يخدم مصالح الولايات المتحدة الكبرى هو موت نظام طراقي - أمين، بالرغم من أية نكسات قد يعنيها هذا لمستقبل الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية في أفغانستان.. إن سقوط جمهورية أفغانستان الديموقراطية سيظهر لبقية العالم، وبالأخص للعالم الثالث، أن وجهة نظر السوفييت القائلة: إن المنهج الاشتراكي في التاريخ هو أمر محتوم، ليست وجهة نظر دقيقة»(٥٩).

لقد جادل الاتحاد السوفييتي مراراً في الثمانينيات من القرن العشرين، وقبل ذلك، أنه لا يمكن إيجاد حل للنزاع إلا بتوقف الولايات المتحدة ودول أخرى عن

تقديم الدعم إلى المجاهدين. أما الولايات المتحدة فقد أصرت بدورها على وجوب سحب السوفييت أولاً قواتهم من أفغانستان.

أخيراً وبعد سنوات عديدة من المفاوضات المدعومة من الأمم المتحدة، جرى في جنيف توقيع اتفاق بتاريخ ١٤ نيسان ١٩٨٨ التزم الكرملين بموجبه أن يشرع بسحب قواته التي يقدر عددها بمئة وخمسة عشر ألف جندي في ١٥ أيار وأن يتم الانسحاب بحلول ١٥ شباط من العام التالي. لقد قال الرئيس السوفييتي ميخائيل غورباتشوف: إن أفغانستان أصبحت «جرحاً نازفاً».

في شهر شباط، وبعد مغادرة آخر القوات السوفييتية أفغانستان، حث غورباتشوف الولايات المتحدة على تأييد فرض حظر على شحنات الأسلحة إلى أفغانستان ووقف إطلاق النار بين الجانبين المتحاربين. لقد رفضت إدارة بوش الجديدة كلا الاقتراحين مدعية أن الحكومة الأفغانية بقي عندها مخزون هائل من المعدات العسكرية. ليس واضحاً سبب شعور واشنطن أن المتمردين الذين قاتلوا الحكومة حتى النهاية بالرغم من الحضور القوي للقوات السوفييتية المسلحة مع كل معداتها، سيكونون الآن في وضع خطر مع رحيل الروس. إن مفتاح الرد الأمريكي قد يكون كامناً في بيان لوزارة الخارجية الأمريكية صدر في الأسبوع السابق مفاده أن الولايات المتحدة تعتقد بأن حكومة كابول إذا تركت وشأنها لن تستمر أكثر من ستة شهور[٦٠].

بإثارة مسألة ثغرة الأسلحة (سواء أكانت صحيحة أم لا)، كانت واشنطن تؤكد استمرار سباق التسلح في أفغانستان، أي صورة مصغرة للحرب الباردة. وفي الوقت ذاته دعت إدارة بوش السوفييت إلى دعم «أفغانستان مستقلة وغير منحازة» مع أن هذا كان بالضبط ما عملت الولايات المتحدة على عرقلته خلال عقود من السنين.

بعد ذلك بيومين انتقد الرئيس نجيب الله الرفض الأمريكي لاقتراح غورباتشوف، عارضاً أن يعيد الأسلحة السوفييتية إذا وافق المتمردون على التخلي عن أسلحتهم والتفاوض. لم يرد أي جواب على هذا العرض من الولايات المتحدة أو من المتمردين الذين سبق لهم في الماضي أن رفضوا مثل هذه العروض.

يبدو أن واشنطن كانت تفكر بما هو أبعد من وقوفات لإطلاق النار وإجراء مفاوضات. ففي اليوم ذاته، الذي تقدم فيه نجيب الله بعرضه، أعلنت الولايات المتحدة أنها سلمت أفغانستان ٥٠٠,٠٠٠ كتاب مدرسي «من صنع أمريكا» لاستخدامها في التدريس من الصف الأول حتى نهاية الصف الرابع. إن هذه الكتب التي «قال النقاد إنها تقترب من النصوص الدعائية» تتحدث عن قتال الثوار ضد الاتحاد السوفييتي وتحتوي على رسوم تصور رجال العصابات وهم يقتلون الجنود الروس[٦١]. كان المجاهدون، منذ بداية الحرب، قد حافظوا على أسوأ معاملة للروس. وتمتلك واشنطن تقارير ثابتة تفيد أن الثوار حقنوا بالمخدرات وعذبوا ما بين ٥٠ و٢٠٠ أسير سوفييتي كانوا مسجونين كالحيوانات في أقفاص «ويعيشون حياة من الرعب لا توصف»[٦٢]. ثمة رواية أخرى مصدرها مراسل لمجلة (فار ايسترن ايكونوميك ريفيو Far Eastern Economic Review) تقول:

«إن إحدى المجموعات السوفييتية قُتلت وسلخت جلودها وعلقت في دكان جزار. لقد وجد أحد الأسرى نفسه موضع جذب في لعبة (بوزكاشي Buzkashi) هذا الشكل العنيف من أشكال البولو الأفغانية التي يكون فيها عادة ماعز مقطوع الرأس هو الكرة التي يتقاذفها اللاعبون. هذا الأسير استخدم بدلاً من الماعز وهو حي وبدون مبالغة انتهى إلى تمزيقه إرباً إرباً»[٦٣].

في تلك الأثناء لم تظهر أية إشارة تدل على انهيار حكومة كابول، وهذا ما كان مفاجأة للولايات المتحدة ولكل جهة أخرى. النبأ الجيد بالنسبة لواشنطن هو أن «معدل الفائدة من الكلفة» قد تحسن منذ ذهاب القوات السوفييتية (مع أن بعض المستشارين العسكريين ظلوا في أفغانستان)[٦٤]. والكلفة تقاس كلياً بعدد الموتى والذين يعانون من غير الأمريكيين. إذ أن المتمردين استمروا في تفجير السيارات المفخخة وإطلاق الصواريخ على المناطق السكنية في كابول ودمروا المدارس والعيادات التي بنتها الحكومة وقتلوا المعلمين الذين كانوا يكافحون الأمية. (على غرار ما كانت تفعله جماعات الكونترا المدعومة من الولايات المتحدة في نيكاراغوا

على الجانب الآخر من العالم، ولنفس السبب: تلك كانت رموز النية الطيبة الحكومية).

إن الموت والدمار اللذين سببهما السوفييت وحلفاؤهم الأفغان كانا بدورهما واسعين، من مثل قصف العديد من القرى. ولكن القصص عن الفظائع الفردية يجب مقاربتها بحذر لأن ميل وقدرة وكالة المخابرات المركزية، كما سبق أن رأينا مراراً، على بث المعلومات الكاذبة ضد الشيوعيين - وفي الأغلب هي من النوع المغرق في الغرابة - كانا في الواقع غير محدودين. وبما أن الاتحاد السوفييتي هو الخصم المباشر فإن مصباح الإبداع لابد أن يظل مضاءً طوال الليل في (لانغلي Langley).

ذكرت (في منتصف الثمانينيات من القرن العشرين) منظمة العفو الدولية، مع ما تتصف به من عناية في أساليب جمع المعلومات، أن السلطات في كابول أكثرت من استخدام التعذيب والاعتقال التعسفي[٦٥]. ولكن ماذا نقول - على سبيل المثال- عن الخبر الذي قدمه الصحفي جاك أندرسون دون أن ينسبه إلى مصدر، مع العلم أن أندرسون - كانت له ارتباطات باللوبي الأفغاني لدى الأمريكيين - ويقول الخبر: إن الجنود السوفييت غالباً ما كانوا يقتحمون القرى غير الصديقة في أفغانستان «ويقتلون كل رجل وامرأة وولد؟»[٦٦]. أو ما روته جريدة «نيويورك تايمز» نقلاً عن مواطن أفغاني عن كيفية التسبب بالعمى عمداً من قبل الجنود الأفغان لخمسة أطفال بواسطة قطع من المعدن ثم خنق هؤلاء الأطفال، بينما كان أحد مؤيدي الحكومة يضحك ساخراً. من حسنات الصحيفة أنها أضافت «إن هذه القصة لم يكن من سبيل لتأكيدها. من المحتمل أن الرجل الذي رواها كان يحاول تشويه سمعة النظام هنا. غير أن عينيه كانتا تشيان بأنه رأى مشاهد رعب»[٦٧]، أو ماذا نفعل باتهام أحد أعضاء الكونغرس الأمريكي في عام ١٩٦٥ للسوفييت باستخدام لعب للأطفال مفخخة لبتر أطراف الأطفال الأفغان[٦٨]. وهذه قصة معروفة رويت من قبل عن اليساريين في أماكن أخرى من العالم خلال الحرب الباردة وتكررت روايتها في عام ١٩٨٧ من قبل محطة تلفزيون (سي. بي. اس) مع الصور. في وقت لاحق

لها نشرت نيويورك بوست إدعاء أحد المنتجين في الإذاعة البريطانية (C.B.B) أن اللعبة المفخخة قد صنعت لكي يستخدمها مصور محطة (سي. بي. اس)[٦٩].

ثم كان هناك ما يسمى صندوق الرحمة الأفغاني، وهو في الظاهر وكالة للإغاثة ولكنه بالدرجة الأولى يعمل في مجال الدعاية، وهو ذكر أن السوفييت أحرقوا طفلاً وهو حي، وأنهم كانوا يصنعون ألغاماً بشكل قطع السكاكر ويتركون ألغاماً أخرى بشكل فراشات لجذب الأطفال. وتبين فيما بعد أن ألغام الفراشات هي نسخ عن لغم صممته الولايات المتحدة واستعملته في حرب فيتنام[٧٠].

كان هنالك أيضاً إسقاط طائرة باكستانية مقاتلة فوق أفغانستان في أيار ١٩٨٧، وقد أعلنت الخبر كل من باكستان وواشنطن - مع علمهما الأكيد أن إدعاءهما لم يكن صحيحاً - وادعى الخبر أن إسقاط الطائرة كان بصاروخ من صنع سوفيتي. وقد تبين أن الطائرة أسقطت خطأ من قبل طائرة باكستانية أخرى[٧١].

طوال مطلع ومنتصف الثمانينيات من القرن العشرين، كانت إدارة ريغان تعلن أن الروس كانوا يمطرون لاوس وكمبوديا وأفغانستان بمواد كيميائية سامة - أي ما يسمى «المطر الأصفر» - وتسبب ذلك في وفاة أكثر من عشرة آلاف شخص في عام ١٩٨٢ وحده (بما في ذلك ٣٠٤٢ وفاة في أفغانستان عزيت إلى ٤٧ حادثاً منفصلاً بين صيف ١٩٧٩ وصيف عام ١٩٨١. وكانت هذه المعلومة دقيقة). إن وزير الخارجية الأمريكي (الكسندر هيغ Alexander Haig) كان هو الموزع الرئيسي لهذه القصص، وإن الرئيس ريغان ذاته شجب الاتحاد السوفييتي على هذا النحو أكثر من ١٥ مرة في وثائق وخطب[٧٢]. وتبين فيما بعد أن «المطر الأصفر» لم يكن سوى زرق طيور محمل بغبار الطلع أسقطته أسراب هائلة من النحل كانت تطير في سماء البلد. ثم كشف النقاب في عام ١٩٨٧ عن أن إدارة ريغان أصدرت اتهاماتها بالرغم من أن العلماء الحكوميين في ذلك الحين لم يتمكنوا من إثبات أية تهمة من هذه التهم، واعتبروا الأدلة المقدمة بأنها هزيلة ومضللة[٧٣]. والأكثر مدعاة للشك: أن الدراسات العلمية الرئيسية التي دققت لاحقاً في ادعاءات واشنطن تحدثت فقط عن لاوس

وكمبوديا وتايلاند، ولم يكن فيها أي ذكر إطلاقاً لأفغانستان. وبدا وكأن الإدارة - ربما أخطأت في أول الأمر بدون نية سيئة حول الهند الصينية - قد أضافت أفغانستان إلى القائمة مع علمها التام بكذب ادعائها.

إن حملات المعلومات المضللة من هذا القبيل يقصد بها في الغالب تلبية حاجة سياسية داخلية. دعنا نتأمل مشاركة السيناتور (روبرت دول Robert Dole) في البحث عندما يتحدث في عام ١٩٨٠ في قاعة الكونغرس عن «دليل مقنع» قُدم له «يقول: إن السوفييت طوروا قدرة كيميائية تفوق إلى حد بعيد أكبر مخاوفنا.. (إنه غاز) لا يتأثر بكمامات الغاز الأمريكية ويجعل العسكريين بدون قدرة عل الدفاع عن أنفسهم». ثم أضاف «حتى الدعوة إلى تقليص نفقات الدفاع عن دولتنا في هذا الزمن الحرج من تاريخنا من قبل إدارة كارتر هو ما يمكن سبر غوره»[٧٤]. وفي شهر آذار عام ١٩٨٢ عندما أطلقت إدارة ريغان إدعاءها عن وفاة ٣,٠٤٢ أفغاني، ذكرت جريدة «نيويورك تايمز» أن «الرئيس ريغان قرر للتو أن الولايات المتحدة ستستأنف إنتاج أسلحة كيميائية وطلب رصد زيادة كبيرة في الميزانية العسكرية لإنتاج هذه الأسلحة»[٧٥].

إن المال اللازم لتوسيع حملة الدعاية الأمريكية على الصعيد الدولي تدفق من قرن خيرات الكونغرس بسهولة وفق رغبات العسكريين - ٥٠٠,٠٠٠ دولار دفعة واحدة لتدريب الصحفيين الأفغان على استخدام التلفزيون، والإذاعة والصحف لتعزيز قضيتهم»[٧٦].

لابد لنا من أ ن نلاحظ أن الحكومة الأفغانية كانت في حزيران ١٩٨٠، قبل توجيه أية تهمة من تهم «المطر الأصفر» إلى الاتحاد السوفييتي، قد اتهمت هي المتمردين ومناصريهم الأجانب باستخدام الغاز السام، مستشهدة بحادث تسمم خلاله ٥٠٠ تلميذ وأستاذ في العديد من المدارس الثانوية بغازات مؤذية، دون أن ينشر خبر عن وفاة أحد منهم[٧٧].

أحد الأسباب لاستمرار مراوغة النصر للمجاهدين هو أنهم كانوا منقسمين على أنفسهم من جراء خلافات اثنية وقبلية عمرها قرون من الزمن، ونشوء الأصولية الإسلامية في وقت متأخر نسبياً في تناقض مع الإسلام التقليدي الذي استمر محافظاً على العقيدة. كانت الخلافات تؤدي في أكثر الأحيان إلى العنف. في أحد الحوادث، في عام ١٩٨٩، قتل سبعة من كبار قادة المجاهدين وأكثر من عشرين آخرين من الثوار، على أيدي جماعة منافسة من رجال حرب العصابات. هذا لم يكن الأول ولا الأخير من مثل هذه الحوادث[٧٨]. مع حلول شهر نيسان عام ١٩٩٠، أي بعد مرور ١٤ شهراً على الانسحاب السوفييتي وصفت جريدة «لوس انجلس تايمز» حالة الثوار على النحو التالي:

«لقد قتلوا من رجالهم في الأسابيع الأخيرة أكثر ممن قتلوا من رجال العدو.. إن قادة المقاومة المتنافسين كانوا يقتلون بأسلوب العصابات على حدود مدينة بيشاور (باكستان) التي هي منطلق الحرب. تداعت أخبار القتل لأسباب سياسية على نطاق واسع في مخيمات اللاجئين.. أحد الإدعاءات الأخيرة كان على علاقة بالمخدرات بقدر ما كانت له علاقة بالسياسة.. إن قادة آخرين، في أفغانستان وفي المخيمات الحدودية، يرفضون القتال، وهم يقولون في الأحاديث الخاصة: إنهم يفضلون الرئيس الأفغاني نجيب الله على المجاهدين الأصوليين بقيادة قلب الدين حكمتيار[٧٩].

وأصاب الفساد أيضاً قضية الثوار بسبب تدفق كميات كبيرة من الأسلحة. لقد ذكر الصحفي المحقق (تيم وينر Tim Weiner) مايلي:

«حدث تسرب في خط أنابيب وكالة المخابرات المركزية. حدث التسرب بشكل سيئ. سالت كميات كبيرة من الأسلحة متدفقة على كل جزء من أجزاء مناطق العالم الأكثر فوضى. في أول الأمر أخذت القوات المسلحة الباكستانية ما أرادت أخذه من شحنات الأسلحة، وسرق قادة رجال العصابات الأفغان الفاسدون وباعوا ما قيمته

مئات الملايين من الدولارات من المدافع المضادة للطائرات ومن الصواريخ ومن قذائف (الآر. بي. جي) (Rocket-propelled grenades)، وبنادق أوتوماتيكية من طراز (AK-٤٧) وذخائر وألغام من ترسانة وكالة المخابرات المركزية، وقد وقع بعض الأسلحة في أيدي عصابات إجرامية ومهربي الهيروين وفي أيدي الفئة الأكثر راديكالية من العسكريين الإيرانيين.. بينما قواتهم كانت تحصد الأرواح في جبال وصحارى أفغانستان، وحصل القادة السياسيون لحرب العصابات على فيلات رائعة في بيشاور وعلى أساطيل من المركبات وضعوها بتصرفهم. التزمت وكالة المخابرات المركزية الصمت عندما كان السياسيون الأفغان يحولون أسلحة الوكالة إلى أموال بالنقد»[٨٠].

بين الأسلحة التي باعها المجاهدون إلى الإيرانيين صواريخ (ستنغر Stinger) العالية التقنية المضادة للطائرات والتي تلاحق الحرارة، وبواسطتها كان الثوار قد أسقطوا عدة مئات من الطائرات العسكرية السوفييتية، وعلى الأقل ثماني طائرات ركاب. في الثامن من تشرين الأول ١٩٨٧ أطلق الحرس الثوري الذي كان يستقل قارباً عسكرياً إيرانياً أحد صواريخ ستنغر على طائرات هيلوكوبتر أميركية كانت تقوم بأعمال دورية ي الخليج الفارسي، ولكنهم أخطأوا الهدف[٨١].

في مطلع نفس العام أبلغت وكالة المخابرات المركزية الكونغرس أن ما لا يقل عن ٢٠٪ من مساعداتها العسكرية للمجاهدين قد سُرِقت من قبل الثوار والمسؤولين الباكستانيين، وذكر الكاتب الصحفي جاك أندرسون في الوقت ذاته أن تقديراته المتحفظة تفيد أن تحويل هذه الكميات من الأسلحة كان بنسبة تقترب من ٦٠٪، في حين أن أ حد قادة الثوار أبلغ مساعد أندرسون عندما زار منطقة الحدود أنه يشك في أن نسبة ٢٥٪ من الأسلحة قد اجتازت الحدود. في روايات أخرى أن نسبة أقل هي ٢٠٪ كانت تصل إلى أيدي الجهات المقصود وصولها إليها، فإذا كان هناك عجز في الأسلحة المتاحة للمجاهدين مقارنة بتلك المتوفرة للقوات الحكومية، كما أوحى بذلك جورج بوش بصورة ضمنية، فقد كان من الواضح أن ذلك هو أحد الأسباب الرئيسية. ومع ذلك كان مسؤولو وكالة المخابرات المركزية وغيرهم من مسؤولي

الإدارة الأمريكية ينظرون ببساطة إلى الأمر وكأنه جزء من عمل تجاري في ذلك الجزء من العالم[٨٢].

إن الثوار، شأنهم شأن كثيرين من عملاء وكالة المخابرات المركزية الآخرين كانوا يحصلون على تمويلهم أيضاً بواسطة تهريب المخدرات، والظاهر أن الوكالة لم تكن تهتم بذلك إلا اهتماماً قليلاً مادام هذا الأمر يجعل العملاء سعداء. إن قادة المجاهدين داخل أفغانستان كانوا شخصياً يسيطرون على حقول كبيرة من خشخاش الأفيون، وهو المادة الخام التي يستخلص منها الهيروين. وكانت الشاحنات التي تقدمها وكالة المخابرات المركزية والبغال التي تنقل الأسلحة إلى أفغانستان، تُستخدم في نقل بعض الأفيون إلى معامل عديدة على امتداد الحدود الأفغانية - الباكستانية ومن هناك كانت أطنان الهيروين تُعالج بالتعاون مع العسكريين الباكستانيين. كان مردود ذلك يوفر نحو ثلث إلى نصف كمية الهيروين التي تُستعمل سنوياً في الولايات المتحدة وثلاثة أرباع الكمية التي تُستعمل في أوروبا الغربية. وقد اعترف مسؤولون أميركيون بأنهم أخفقوا في عام ١٩٩٠ في إجراء تحقيق أو القيام بعمل ضد عملية تهريب المخدرات بسبب رغبتهم في عدم إغضاب حلفائهم الباكستانيين والأفغان[٨٣]. وفي عام ١٩٩٣ وصف مسؤول في إدارة مكافحة المخدرات الأمريكية أفغانستان بأنها كولومبيا الجديدة في عالم المخدرات[٨٤].

استمرت الحرب بكل ما تعنيه من عذاب حتى ربيع عام ١٩٩٢ أي بعد مغادرة الجنود السوفييت بثلاث سنوات. وقد وُضعت الآن موضع التنفيذ اتفاقية حول إنهاء توريد الأسلحة كانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي قد توصلا إليها. آنذاك كانت القوتان العظميان قد تخليتا عن الحرب. والاتحاد السوفييتي لم يعد موجوداً. والشعب الأفغاني كان قد فقد أكثر من مليون قتيل، وثلاثة ملايين مُقعد وخمسة ملايين تحولوا إلى لاجئين، وهؤلاء جميعاً يمثلون نحو نصف عدد سكان أفغانستان.

في الوقت ذاته كان يُفترض في هدنة أشرفت الأمم المتحدة على تنظيمها أن تتيح نقل السلطة إلى حكومة ائتلافية انتقالية ريثما تجري الانتخابات. ولكن هذا لم

يحدث. فحكومة كابول انهارت في خضم اضطرابات من أجل المواد الغذائية وتمردات من الجيش، الذي تفكك واقعياً، واقتحم رجال العصابات العاصمة وأسسوا أول نظام حكم إسلامي في أفغانستان منذ أن أصبحت بلداً منفصلاً ومستقلاً في منتصف القرن الثامن عشر.

أحد الأحداث الرئيسية التي أدت إلى سقوط الحكومة هو انضمام الجنرال عبد الرشيد دستم في الساعة قبل الأخيرة إلى رجال العصابات. وبعد أن كانت وسائل الإعلام الأمريكية تُطلق على دستم في السابق صفة «الجنرال الشيوعي»، خففت من هذه الصفة الآن فصارت تسميه «الجنرال الشيوعي سابقاً».

كان المجاهدون هم الرابحين. أما الآن فقد أخذوا يتقاتلون بكل ما يملأ نفوسهم من حقد. إن صواريخ وقذائف المدفعية مسحت بالأرض أحياء كاملة في كابول، ومع حلول شهر آب كان ما لا يقل عن ١٥٠٠ إنسان قد قتلوا أو جرحوا، معظمهم من المدنيين. (مع حلول عام ١٩٩٤، ارتفع إحصاء القتلى والجرحى في هذه الحرب الأهلية الثانية إلى ١٠,٠٠٠). ومن بين جميع قادة الثوار لم يكن أحد أقل تساهلاً وأكثر إصراراً على حل عسكري من قلب الدين حكمتيار.

لاحظ في ذلك الحين (روبرت نيومان Robert Neumman) وهو سفير أميركي سابق في أفغانستان ما يلي:

«حكمتيار أحمق ومتطرف وعنيف جداً. رباه الباكستانيون. ولسوء الحظ أن حكومتنا سايرت الباكستانيين. كنا نقدم المال والأسلحة ولكنهم (أي المسؤولين الباكستانيين) كانوا يرسمون السياسة».

كانت واشنطن الآن قلقة جداً خشية أن يستولي حكمتيار على السلطة، ومن دواعي السخرية أنهم كانوا يخشون أنه إذا استولى عليها سينتشر نوع متطرف ومزعزع للاستقرار في الجمهوريات السوفييتية السابقة ذات الأعداد الكبيرة من السكان المسلمين، وهو الخوف ذاته الذي كان أحد دوافع تدخل السوفييت في الحرب الأهلية في المقام الأول[٨٥].

في آخر الأمر، انضم «الجنرال الشيوعي» دستم إلى قوات حكمتيار.

إن سليمان لايق، وهو شاعر يساري، والمنظّر العقائدي للنظام الذي سقط، كان يرقب من نافذته المجاهدين وهم ينتشرون في المدينة مطالبين ببناء بعد بناء «بدون استثناء» وقد قال عنهم: «إنهم يتبعون أهداف الأصوليين وأهداف الإسلام. إنه ليس إسلاماً. إنه نوع من نظرية ضد التمدن - ضد التمدن العصري -»[٨٦].

كان المجاهدون حتى قبل استيلائهم على السلطة قد فرضوا حظراً على جميع الفئات غير المسلمة، وأصبح الآن القانون الجديد بالكثير من أحكامه يطبق: فالمشروبات الكحولية كلها محظورة في الجمهورية الإسلامية، والنساء لا يمكنهن المجازفة بالخروج إلى الشوارع بدون وضع الحجاب، أما المخالفات فعقوبتها الجلد، وبتر الأطراف والإعدام علناً. وهذا ما فعله الإسلاميون «الأكثر اعتدالاً»، وليس حكمتيار. مع حلول شهر أيلول نُفذت أول أعمال شنق في الساحات العامة. لقد شُنق ثلاثة رجال أمام جمع مؤلف من ١٠,٠٠٠ إنسان كانوا يهتفون تأييداً. هؤلاء الرجال الثالثة حُوكموا وراء أبواب مغلقة ولم يقل أحد ما هي الجرائم التي ارتكبوها[٨٧].

في شهر شباط ١٩٩٣ فجرت مجموعة من الشرق أوسطيين مركز التجارة العالمية في مدينة نيويورك معظمهم كانوا مقاتلين قدماء في صفوف المجاهدين. وكان مقاتلون قدماء آخرون يرتكبون أعمال اغتيالات في القاهرة، وتفجير قنابل في بومبي، ويقومون بانتفاضات دموية في جبال كشمير، وبحرب عصابات في الفيلبين.

هذه إذاً كانت قوة وأمجاد «المناضلين من أجل الحرية» الذين تبناهم الرئيس ريغان، والذين أصبحوا أكثر عداء لأمريكا في السنوات الأخيرة، وكان كثيرون منهم يدعمهم الرئيس العراقي صدام حسين في نزاع الخليج الفارسي في المدة ١٩٩٠ - ١٩٩١. ومن المؤكد أن حتى رونالد ريغان وجورج بوش كان من شأنهما أن يفضلا صحبة المصلحين «الشيوعيين» مثل الرئيس نور محمد طراقي، أو عمدة كابول محمد حكيم أو الشاعر سليمان لايق.

ولكن الاتحاد السوفييتي كان قد نزف. لقد نزف بغزارة، أما الولايات المتحدة فقد كانت هي أيضاً تخوض حرباً مقدسة.